المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٢٩ ربيع الاول ١٣٣٥ — ٤ الدلو (ش٢) ١٢٩٥ هـ ش ٢٤ يناير ١٩١٧

# رحلة الحجاز

٢

( تابع لما في الجزء الخامس )

ضربت وزارة الداخلية يوم السبت الخامس والعشرين من شهر صفر (الموافق لأول الميزان ٢٣ سبتمبر) موعدا لسفر ركب المحمل المصري من القاهرة الى السويس وآذنت مريدي الحج بأن يكونوا قبل ذلك اليوم في السويس ليأخذوا فيها أهبتهم ويتبوءوا أمكنتهم من الباخرتين اللتين أعدتها لحملهم الى جُدة. و بينا أنا منهمك في الاستعداد للسفر بشراء ماينبغي شراؤه، وترتيب ماتقرر حمله، واعداد ماتحتاج اليه الدار و إدارة المنار، خطر في بالي أن أكتب رسالة في مناسك الحج أبين فيها أحكامه وحكمها بعبارة سهلة، مأخوذة مما صح في السنة، وأن أطبعها وأحملها معي هدية للحجاج الذين أصحبهم وألقاهم . فشرعت في ذلك وقت الظهر من يوم الاربعاء فكنت أكتب عدة أسطر ثم أترك الكتابة عدة دقائق للاشتغال بشيء ضروري. ثم انني اضطررت

الى ترك الكتابة من ظهر يوم الخميس الى ضحوة يوم الجمعة، ثم قضيت أصيل ذلك النهار وغسق الليل خارج المكتب والدار، فتعذر الجمع بين اكمال المناسك والسفر في يوم الجمعة فأكملت كتابتها في هذا اليوم (الجمعة) فكانت أكثر من كراستين وقد ضاق الوقت على طبعهما قبل السفر، اذ تعين أن يكون آخر موعد له قبل الظهر بساعة من يوم السبت ، فاضطررت بعد جمع حروفها ليلا الى اختصار الاولى بالحذف من عدة مواضع منها ، وطبعت بعد ان تممت فلم أتمكن من تصحيحها، فلذلك كثرت أغلاطها، وتعذر على المطبعة أن تجهز لنا ضحوة السبت جميع النسخ فاكتفينا بحمل مئات منها

ركبنا القطار الحديدي مع السيدتين الوالدة والشقيقة قبيل انتهاء الساعة الحادية عشرة من يوم السبت بيضع دقائق، وكان ركب المحمل قد سافر في قطار خاص في أول هذا اليوم ، وودعنا في المحطة الاهل والاخوان ، وخاصة من علم بموعد سفرنا من الخلان، وقد كنا بلونا لوعة الوداع بتعدد الاسفار، وكان أشجاها وداع الوالدين والاقربين والاصدقاء عند الهجرة الى هذه الديار، ولكنني لم أذق قبل هذا اليوم لوعة توديع الاهل والاولاد لانني لم أكن في حال سفر من أسفاري السابقة زوجا ولا والدا.

## ﴿ نبذة فلسفية شعرية في الوداع وما فيه تهذيب الطباع ﴾

قرأت قبل سفري الاول كثيرا مما قال الادباء والشعراء في الوداع، وحفظت من أشعارهم ما لا يسهل علي أن اتذكره الآن ، ولا أحب أن اشغل بالتطويل في هذا الموضوع قراء هذه الرحلة ، ولا أن أترك الالمام به وهو من أهم مسائل علم النفس التي تفيد بصيرة في علم التربية .

إنني عند وداع الوالدين وذوي القربى والاصدقاء في سفر الهجرة الى مصر وجدت في نفسي وفيمن ودعت منهم مصداقا لقول الشاعر :

لو كنتَ ساعةَ بَيْنِنا ما بَيْنَنا　　ورأيت كيف نُكرِّر التَّوديعا

لرأيت أن من الدموع محدِّثا　　وعلمت أن من الحديث دموعا

فقد كان الحديث للدموع وحدها لان لسان الفم حبس فخرس، ولسان العينين انطلق بالكلام المنسجم ، وقد كتبت الى بعضهم بعد الوصول الى مصر عبارة شعرية كنت شعرت بأنها حقيقة وجدتها في نفسي ، وهي أنني وجدت وجد المودَّع

ولوعته يساويان وجد جميع من ودعوه وان كثروا، لأن كل واحد منهم فارق محبوبا واحدا وهو قد فارق أحبابا كثيرين يجد في نفسه من الالم لفراق كل منهم مثل مايجده ذلك الفرد لفراقه ه والصواب ان لكل نوع من أنواع الوجدان والشعور حدا يختلف باختلاف أمزجة الناس ويتفاوت في الافراد بتفاوت مايثيره في قلوبهم، ولو أمكن ان يوضع للادراكات النفسية موازين كموازين الحرارة والرطوبة والثقل لأمكننا بها أقصى حد لألم الفراق في نفس العاشق الواله ، وفي نفس مثل الزوج والوالدة والوالده وهو إنما يبلغ حده الاقصى اذا كان الفراق بعيد الشقة ، أوعرضة للهلاك أو شدة المشقة ، كسفر ابن زريق من بغداد الى المغرب في ذلك العصر ، فهو لولا الخوف من الفراق الابدي لما أحب لما قال في وداعه يومئذ قول العاشق الممثل لما في فؤاده ، لا قول الشاعر المصور لما في خياله :

ودعته وبودي لو يودعني    طيب الحياة واني لا أودعه
كم قد تشفع بي ألا أفارقه    والضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى    وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق    عني بفرقته لكن أرقعه

ذلك بأن وداع الاحباب عند سفر قاصد (قريب) الى خير مرجوّ في حرم آمن ، ليس كالوداع في سفر بعيد يضعف فيه الامل ، فيما يثيره من الوجد والألم . بل أقول ان الانفس تهوى بعض الآلام الخفيفة ، وتجد في باطنها لذة خفية ، كلذة العاشق المستكمة في هجر محبوبه إياه هجر دلال أو هجر ملال ، يعافيه وما يتلوه من تهييج عواطف الحب والوجد والاشتياق ، الذي يشبه كد الذهن واتعابه في حل المسائل العلمية العويصة ، أو اجهاد البدن في بعض الاعمال الواجبة أو الرياضات المستحبة ، في ان كلا من ذلك جامع بين الالم واللذة : أو بما يترتب عليه من لذة الشكوى والعتاب كما قالت علية بنت المهدي

وأعذب أيام الهوى يومك الذي    تروّع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا    فأين حلاوات الرسائل والكتب

واذا كان لكل شعور ووجدان نفسي غاية وحد فسواء كان السبب الذي يبلغ به منتهى حده واحدا أو متعددا ، واذا كان الغلو في حب الولد أو العشق أو غيرهما

من شأنه ان يترتب عليه بلوغ تلك الغاية وهو قلما يكون الا في حب الآحاد من الاولاد والاحباب فان الحب المتفرق على المحبوبين المتعددين من جنس واحد كالاولاد أو من عدة أجناس لا يكاد يكون الا دون الحد الاقصى — اذا كان ماذكر كما ذكر وهو ما نراه فتلك القاعدة الشعرية التي كنت كتبتها لا تصدق بالاطراد بل الاكثر أن لوعة الفراق المتفرقة على الكثيرين تكون دون اللوعة المقصورة على الافراد

هذا وان سفرنا الى الحجاز سفر قاصد لاداء فرض لازم في عام يقل فيه عدد الحجاج فتسهل فيه مراعاة الحكومة لصحتهم والبلاد سالمة من الاوبئة فالرجاء قوي بأن تؤدى الفريضة فيه بالسهولة في مدة شهر واحد . ففراق الاهل والصحب في مثل هذا السفر ليس من شأن وداعه ان يثير منتهى الاشجان ، وينطق الدموع ويخرس اللسان ، وناهيك بمن كان مثلي مسافرا مع أشد الناس حبا له — والدته وشقيقته ، وكم ودع الناس بعضهم بعضا في مثل هذه الحال ضاحكين مسرورين ، وكذلك ودعنا الاهل والاصدقاء في محطة مصر ودخلنا القطار ، ولما وقفت في النافذة وقدم الي محمد شفيع وشمس لاجل القبلة الاخيرة ، اضطربت عاطفة الابوة في جميع أعماق النفس ، فاضطرمت لوعة فراقهما في سويداء القلب ، ففاضت العينان ، واعتقل اللسان ، وخانتني تلك الارادة التي كنت أكابر بها الاشجان ، والعزيمة التي تعودت أن أملك بها أزمة الوجدان ، حتى عند الصدمة الاولى بموت الاخوة والاخوان ، وما ذاك الا أن ألم توديع الاولاد مشوب بالشفقة لاتستجمع لمقاومته كل قوة الارادة ، وألم مثل تلك الصدمة ، هو الذي توجه لاحتماله كل العزيمة

تذكرت في هذا المقام ما قاله صديقنا عبد الحميد الرافعي شاعر طرابلس الشام في توديع أولاده عند سفر له الى الآستانة ، وهو قوله من قصيدة :

لست أنسى ساعة البين وما	هي الا فك روح من جسد
رمت فيها الصبر لكن لم أطق	وحبست الدمع لكن لم يكد
وبروحي غرر أقبلتهـــــا	لجبين الحسن منهـا مستمد
من صغار كاللآلي جانبت	منهم الالسن والجفن اطرد
بعضهم أبكاه مرأى من بكى	ليس يدري قط ما اليوم وغد

والذي لاح له معنى النوى أطبق الدمع عليه فارتعد
هل سمعتم يالقومي عاشقاً أنس الظبي به وهو شرد
ليتني فارقت عيني والحشا قبلما فارقت أهلا وولد
أودعوني عند ما ودّعتهم حسرةً كانت من الموت أشد
كلهم ينشدني قرب اللقا حاسباً العود أياما تعد
والذي لا يعرف النطق غدا نطقه الإيما بعين أو يد

وما بيني وبين هذا الصديق الا أن سفري خير من سفره، وولدي أصغر من ولده، فقد كان بعض ولده يفهم معنى الفراق والسفر ونعي لم تكن أتمت السنة الثالثة وشفيع كان في أول الشهر الخامس عشر، وكان سبب سفره أن الشيخ أبا الهدى الشهير غضب عليه غضبة مضرية، قطعت عليه موارد الرزق بعزله عن أعمال الحكومة، فرحل الى الآستانة يستعطفه ويسترضيه، عسى أن يعود بجاهه الى عمله أو عمل يفوقه أو يدانيه، معلق القلب بين الفوز بالامل، وبين الخزي والفشل، لا يدري أيعود كما رجا أهله بعد أيام تعد، أو بعد شهور أو سنين لا تعد، حسب القاعدة المطردة في كل عمل يطلب من حكومة الآستانة، فأين السفر الى تلك العاصمة لطلب الرزق من أولئك الباخلين المخلفين؛ من السفر الى مكة المكرمة، لطلب المغفرة والرحمة من أرحم الراحمين؟ لقد كان ذلك الشاعر جديرا بأن لا تعود اليه السكينة، الا بعد أن ينقلب الى أهله بما يرجو من الوظيفة، وأما هذا الكاتب فقد عادت اليه سكينته بعد سير القطار بساعة زمانية، وانما كان يفكر أحيانا فيما يرجو من الاهتمام بصحة ولديه في غيبته، واستشارة الطبيب حتى عند الحوادث التي لم يكن يستشيره في مثلها، وقد ضعف التفكر في ذلك وفي غيره من أمور الدنيا منذ الاحرام الى التحلل التام منه بأداء المناسك كلها، حتى كأن الانسان يدخل بمجرد الاحرام في عالم آخر

والعبرة فيما يلقاه من فلسفة الوداع أن نذكر القارئ بأن ألمه هو أول فوائد السفر المهذبة للنفس ولا سيما نفس الوالد، وقد غفل عنها من حصر ذلك في خمس فوائد. واني رأيت بعض من آثر العزبة وبعض من حرم النسل يظنون ان الوالد من منغصات العيش في الدنيا، لأن غبطة النفس به، وقرة العين برؤيته، ولذة الامل بطول عمره وحسن

مستقبله، لا توازي آلام وداعه عند السفر، والحذر عليه من الموت أو المرض والضرر، دع هم الوالد في تربيته وتعليمه في حياته، والخوف من سوء حاله بعد مماته، ولا سيما اذا كان قليل المال، وكثر عليه العيال. وما هذه الظنون، الا من أوهام الكسالى والمحرومين، إلا أن عدم اقدام فاقد المال أو قليله على الزواج، له وجه في هدي الشرع وآراء الناس. وأما ما يدخل في موضوعنا منها وهو لوعة الوداع ومرارة الفراق، وما يتلوها من حرارة الاشتياق، فهو من أعظم فوائد نعمة الاولاد على الوالدين في تهذيب أنفسهم، وتثقيف عواطفهم، واعلاء همهم، وتقوية أريحيتهم، وهي على ما فيها من الفوائد، حلوة الطعم في ذوق الوالد، كما يستحلي العشاق تجني الحبيب، ويقولون ضرب الحبيب زبيب، ولو قيل للمشتاق أتحب أن تخمد حرارة هذا الشوق في قلبك فتنسى لا تذكر من تشتاق ولا تحن الى لقائه — لقال لا. وفي معناه قول قيس العامري:

وقالوا لو تشاء سلوت عنها  فقلت لهم وأبي لا أشاء

ذلك بأن ما يهيج الوجد مما ذكر يشبه نغمات الالحان، المثيرة للاشجان، والمحركة للاحزان، على شهداء الحق في سبيل الايمان أو الاوطان، الحافزة الى الاخذ بثارهم، والرغبة في اقتفاء آثارهم، وهي مما يرغب فيه الفضلاء، ويحث عليه الحكماء؛ وان بكاء الفراق، الذي يرجى بعده التلاق، كالبكاء من خشية الله عز وجل يحسبه من لم يذق طعمه عذابا وألما، وما هو الا نعيم وغبطة، ولذلك قال من ذاق عرف: أهل الليل في ليلهم، أطيب نفسا من أهل اللهو في لهوهم. وقال بعضهم: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف. ولا تكمل تربية أحد الا بركوب الصعاب وحمل الآلام والاثقال.

وأبعد تلك الظنون بل الوساوس عن الحقيقة وأوغلها في الوهم ما توسوس به النفس لبعض المحرومين: ان خوف الوالد أن يموت قبل أن يرشد ولده و يستقل بنفسه في معيشته، أو يكون له مورد واسع من الرزق يعيش به، ينغص عليه غبطته وسروره بوجوده. وقد سمعت مثل هذا ممن يعد نفسه و يعده بعض الناس من علماء الاخلاق، وما هو الا من أسرى الوساوس والاوهام، فان تفكر الناس في مستقبل أولادهم من بعدهم أو احتمال موتهم من قبلهم، ما كان لينغص عليهم هناءهم وغبطتهم بهم، الا من شذ من غلاة الموسوسين، الذين وصلوا أو كادوا أن يصلوا الى درجة

المجانين، وكل نعمة يخولها هؤلاء تكون عليهم نقمة يحرمون لذة وجودها، ويعذبون بتوهم فقدها، أو احتمال حدوث مصاب بسببها، ومن غلاة هؤلاء المساكين ديك الجن الذي قتل وصيفه ووصيفته لاشتداد شغفه بهما وخوفه ان يموت ويتمتع بهما غيره، ويقرب منه ذلك العاشق المسكين، الذي خلق من ماء الدموع وصلصال الانين، لا من الماء والطين، فاستوى عنده القرب والبعد، والوصل والصد، فهو يبكي من يحب في كل حال، كما وصف نفسه فقال :

فأبكي ان نأوا شوقا اليهم ... وأبكي ان دنوا خوف الفراق

*

اننا بعد توديع من ذكرنا ركبنا وحدنا في مخدع من مخادع مركبات الدرجة الاولى من القطار الحديدي ولكننا لما انتقلنا مع سائر الركاب في الاسماعيلية الى القطار الآخر ألفيناه قطارا رديئا وقد اكتظ بالجنود البريطانية حتى ان المخادع الخاصة بالنساء المخدرات لم تكن تخلو منهم، فاضطررت الى وضع السيدتين في مخدع منها رأيت فيه مواضع لي ولهما، واثقا بأننا لا نرى من هؤلاء الجنود ما نكره، وكذلك كان ولله الحمد، وآداب الجنود الانكليزية الخلص معروفة عند جميع المصريين يندر أن يرى أحد من سكان منهم تعديا او اساءة فكيف يكون ادبهم في حال الصحو ؟ وقد وقف القطار في محطات جديدة كثيرة خاصة بالجنود المعسكرة على جانبي الطريق قريبة من الخط الحديدي او بعيدة عنه، وبسبب ذلك يتأخر القطار قليلا عن موعده المعتاد

وصلنا الى السويس قبل المغرب وكان قد سبقنا اليها امس مع جماهير الحجاج المصريين محمد نجيب افندي المعاون في مديرية الجيزة وهو صهرنا على بنت اخي، والشيخ خالد النقشبندي، فكانا رفيقين لنا في السفر في كل حل وترحال، وكل منزل من منازل الحاج، وقد بتنا تلك الليلة في دار اختارها لنا الرفيقان من دور الاهالي التي يأوي اليها الحجاج في هذه الايام، وهم يتقاضون من الاجرة في كل ليلة فوق ما يعهد في الفنادق الكبيرة التي تفوقها خدمة ونظافة، وكذلك اصحاب المركبات في السويس يزيدون أجورها على الحجاج اضعافا

وفي ضحوة اليوم التالي ذهبنا الى مكتب الصحة لاجل ما فرضته الحكومة على كل حاج من تلقيح اطبائها اياه بالمصل الواقي من الهيضة الوبائية ( الكوليرا ) (لها بقية)